

## النزعة التفكيرية/الانعكاسية

أ.ليلى العرياوي

جامعة سكيكدة

عاش الغرب ومازال ثورة منهجية في العلوم الإنسانية تمخضت عنها مفاهيم حديثة أثرت على اتجاه البحوث العلمية بل الممارسة العلمية ككل وتشكل النزعة التفكيرية أو الانعكاسية أحدها بحيث يمكن اعتبارها تجاوزا برادغميا جريئا للطروحات القديمة من ذاتية وموضوعية بل وحتى الحياد القيمي الفييري. ولقد سجلت النزعة التفكيرية تحولا منسقيا هاما في العلوم الإنسانية لسببين اثنين ألا وهما بينت تواضع الباحث من ناحية وكونه ليس خارج اللعبة من ناحية ثانية مما يترتب عنه جملة من النهايات الحاسمة والفيصلية بالنسبة للبحث العلمي في هذا المضمار. ومن الطبيعي جدا التساؤل حول جذور هذه القضية المعرفية سيما وأن العلوم الإنسانية تساءل وتطرح عليها بإلحاح القضية الشائكة لمصادقيتها لعلمية رغم مرور مايزيد عن القرن عن ولادتها الرسمية وكذا تعالي الأصوات بخصوصيتها والتشكيك في كونية النموذج الوضعاني. تحاول هذه الورقة معلمة هذا المفهوم والإحاطة به ما أمكن من خلال كتابات أصيلة لدى أسماء هامة من الحقل السوسولوجي. الكلمات المفتاحية: علم الاجتماع -التفكيرية- الانعكاسية-الموضوعية - النظرية- المنسق الجديد

Résumé :

La problématique de l'objectivité a toujours une grande importance dans les sciences humaines ,considérée comme étant une garantie de leur scientificité sauf que la façon avec laquelle elle est exposée de nos jours est très différente du passé ,la raison est que le champ sociologique a vu naitre des années auparavant un nouveau paradigme à savoir la réflexivité qui se veut une approche critique de la théorie sociologique qui est n'est pas selon sa perspective au dessus du jeu social autrement dit elle n'est absolument pas au dessus de la mêlée ,à contrario elle fait profondément partie de lui car même la connaissance est un produit social .En fonction de cette perspective ,cet article essayer d'exposer quelques points de vue parmi les plus importants sur la réflexivité.

Mots clés : Sociologie – Réflexivité – Objectivité - Théorie –nouveau paradigme.

Abstract :

The problem of objectivity still having a great importance in human sciences as a guarantee of their scientificity ,but its exposure nowadays differs from past ,the reason is that the sociological field has known many years ago the birth of a new paradigm called reflexivity as an approach basically founded on the critic of the sociological theory witch is not above « the social game » but deeply a part of it because even knowledge is a social product. According to this perspective ,this article tries to expose some of the most important views about Reflexivity .

Key words :

Sociology – Reflexivity –Objectivity – Theory – New theory.

انه لمن المفيد جدا أن نلتفت للمعالجة الاشتقاقية للألفاظ لنتفطن إلى الدلالة أو الدلالات التي تفتق عن الملفوظات ففي وضعنا هذا يبيننا الاشتقاق بأن لفظ "انعكاسي" يتشارك مع ألفاظ أخرى من حيث الحقل الدلالي كمنعكس والقابل للانعكاس بواسطة مسطح ما والذي يغير الاتجاه والتفكير والتقدير وخاصة الارتداد إلى الوعي لإعادة التفكير والتقييم أو الذي يتخذ نفسه موضوعا

للتفكير **1** بحيث تصادف نفس الفكرة في القواعد لما يتم الحديث عن ضمائر انعكاسية وكذا في الرياضيات في تعيين العلاقات

الانعكاسية وهي قضايا على اختلاف حقولها تخضع لنفس المبدأ

شكلت الفلسفة الرحم الأول الذي احتضن المفهوم سيما وأنه غذى كتابات هيغل وكانط وديكارت وروسو لينتهي عند المتأخرين

منهم كمارلو بونتي ودولوز وريكرت وغيرهم مشكلا إشكالا فلسفيا مافتى يطرح في كل الفلسفات من الفينومينولوجية إلى

التأويلية إلى المثالية الحديثة إلى البراغماتية وأخير التحليلية حول ماهية التفكيرية بين الوعي والنقد ولأي النصيب الأوفر وعن الوعي

المتعالي للذات والوعي النقدي وتستحضر استثنائيا المرآة التي تستطيع أن تعكس الصور وتردها إلى أصحابها المتأملين وهو في حد

ذاته عمل مفيد ودينامي لأنه ارتدادي وتفكيري غايته تحقيق الفهم .

سجلت التزعة التفكيرية تحولا منسقيا هاما في العلوم الإنسانية لسببين اثنين ألا وهما بينت تواضع الباحث من ناحية وكونه ليس

خارج اللعبة من ناحية ثانية مما يترتب عنه جملة من النهايات الحاسمة والفيصلية بالنسبة للبحث العلمي في هذا المضمار. ومن

الطبيعي جدا التساؤل حول جذور هذه القضية المعرفية سيما وأن العلوم الإنسانية تساءل وتطرح عليها بإلحاح القضية الشائكة

لمصادقيتها لعلمية رغم مرور مايزيد عن القرن عن ولادتها الرسمية وكذا تعالي الأصوات بخصوصيتها والتشكيك في كونية النموذج

الوضعي.

تعريف التفكيرية:

تتمثل التزعة التفكيرية في قيام الباحث بجعل نفسه موضوعا علميا يسائل ويتساءل فيه عن قيمة منسقه من حيث التوفيق أم لا في

اختيار الأدوات البحثية من منهج وأدواته إضافة إلى مساءلة شروط إنتاجه المعرفي.

حتى وان كان المفهوم قد وظف من طرف غولدنر فان الفضل يعود إلى كل من دافيد بلور وبورديو وغيدنز في جعله يؤسس لمفهمة

جديدة ويجند أفلاما في هذه الوجهة وجدت فيها الخلاص من المشاكل التي انجست فيها العلوم الإنسانية وعلم الاجتماع أحدها

لمدة ليست باليسيرة مما خلق شرعية ما لتداول لفظة أزمة علم الاجتماع.

التفكيريات:

من الواضح أن التفكيرية تيمة إبستيمولوجية تتجاوز مجرد الطرح المنهجي فلننظر إلى أعمال علماء الاجتماع الموالين لتتراءى لنا

زوايا رؤياها المتباينة:

غولدنر: يرتبط إنتاج المعرفة عند ألفين غولدنر بالسياق الاجتماعي ما يجعل المعرفة مرتبطة ومتأثرة بإطار الاجتماعي والثقافي

للمجتمعات. مما في ذلك الايدولوجيا ولقد ذهب في إثبات وجهة نظره إلى ضرب المثل منطلقا من النظريات الكبرى التي ارتبطت

من وجهة نظرة. بمرجعيات مجتمعية ظرفية كنظرية تالكوت بارسونز التي جاءت لتبرير الوضع القائم في الولايات المتحدة إلى غاية

الخمسينات. **2**

وبالفعل فان الباحث لايمكن بأي حال من الأحوال أن يفلت من وضعه كموضوع للمعرفة بحيث لا توجد ضمانات مسبقة أو قبلية

على تنحيه المصلحي أو الإيدولوجي أو الديني منذ اللحظة التي أيقنا فيها أنه جزء لا يتجزء من موضوع البحث فكونه كذلك يمنعه

من أن يكون " خارج اللعبة " أو ينظر إلى العالم الاجتماعي من فوق. فمن المغالطة ألا نحتسب الظروف الاجتماعية لإنتاج

الخطاب العلمي أو المعرفة العلمية.

فعلم الاجتماع حسب بعض الطروحات المحايثة له لايمكن إلا أن يكون تفكيريا فمن المستحيل أن يستجيب للمتطلب الوضعاني

التمثل في الفصل بين الذات العارفة وموضوع المعرفة وباختصار بين العرفان العلمي والعرفان العام وهي مسألة قدرية لعلم

الاجتماع لاعتبار أن موضوعه نفسه تفكيريا.

فالأفراد تفكيريون بحكم طبيعتهم الأنطولوجية المتصلة بالحدثة هذه الأخيرة التي تستدعي جهدا تفكيريا مضاعفا في ظل ضعف

المؤسسات التقليدية في بناء الهويات الفردية.

ويذهب برنارد لاهير أبعد من كل ذلك لما يعتبر أن التفكيرية استعداد يمكن أن يصل إلى نقد ومناهضة السلطة السياسية ويصوره على انه نشاط يومي ضاربا مثلا بالمذكرات الشخصية التي تسمح بالعودة إلى الأحداث لتي قد تمثل لحظة قطعية أو انقطاع في السيرة الذاتية للفرد.3

أما أنطوني غيدنز فيتخذ المسار المغاير لبوردو إذ ينطلق من الأعران الاجتماعيين ليعيد هيكلة وجهة نظره العلمية اتجاه طبيعة ووظيفة العلم السوسولوجي، الشأن الذي تعكسه بكيفية جيدة النظرية النشوئية عنده معتبرا التفكيرية الانعكاسية بعدا مكونا ومشكلا للاجتماعي، تكتسب مكانها في نظرية للفعل أو لنقل علم اجتماع الفعل على خلفية وأن الأفراد حسب غيدنز دوما مزودين بقدرة أو كفاءة تتمثل في مايعرفه الفاعلون حول ظروف فعلهم وفعل الآخرين والذين يوظفونها في إنتاج وإعادة إنتاج الفعل أي مقدرتهم على فهم مايفعلون أثناء أدائهم للفعل وتنقسم المقدرة تلك إلى قسمين مقدرة خطابية (تضم القول والكتابة) ومقدرة عملية وتضم مايستطيع الأفراد فعله دون أن يستطيعوا التعبير عنه بطريقة خطابية وانطلاقا من مسلمة أن كل البشر مزودين بالقدرات التي تتيح لهم معرفة شروط وظروف فعلهم اليومي من الطبيعي، والحال هذه، أن يمارسوا رقابة تفكيرية على أفعالهم وعلى بقية الفاعلين ويتحكمون بطريقة روتينية في الأبعاد الاجتماعية التي يرد الفعل في سياقها.

بيدأن ذلك التحكم لا يكون مطلقا بسبب حضور اللاشعور من ناحية وجهل الفاعل بعض ظروف فعله، علاوة على أنه يفهم نظريا أسس فعله غير أنه لايسيطر بالضرورة على حوافزه. فالخافز هو الرغبة التي تلهمه غير الأسباب التي تكون ذات طابع عقلائي وبالتالي يقيم غيدنز تمييزا بين مقدرة الفاعلين على التعبير بطريقة خطابية على نواياهم والأسباب القائمة من وراء فعلهم ، غير أنهم لا يوفقون عندما يتعلق الأمر بالبواعث وهو الفرق الموجود بين الوعي الخطابي أي مايستطيع الفاعل قوله وفعله والوعي العملي وهو ما يعرف الفاعل فعله فقط والبواعث اللاشعورية.

يخلص غيدنز بعدما وضع مسلماته الفكرية إلى إسقاطها على تيمة الحدائث فيطرح فكرة مغايرة يذهب فيها إلى كون علم الاجتماع في عصر الحدائث ومابعد الحدائث اكتسى قيمة تفكيرية تتمظهر في أن الأفكار التي يأتي بها مثلا تتسلل إلى الأفراد وتؤطر أفعالهم حيث أنهم يفكرون وفق مبادئ النظريات السوسولوجية 4 مما يجعل النظرية السوسولوجية في غدو ورواح بين الباحث وموضوع بحثه .

ومايساهم في ذلك كون الحدائث هذه تتسم بانتشار مهول لوسائل الاتصال مما يجعل المعلومة ناهيك عن كونها مادة ممتازة للنقد والتعليق تؤثر مباشرة على حياة الناس وعليه تتمظهر الشائخ العميقة بينهما، وهكذا تضمن التفكيرية مصير علم الاجتماع لأنها تحمله إلى أقصى حدوده وهي ذاتها حدود النقد وفي الحالة النقيض فانه يلعب لعبة السلطة لمساهمته في ستر الحقائق والتدليس عليها. من المؤكد اننا نقف هما على مرمى حجر أو نظر من نظرية بورغن هابرماس الموسومة "بالفعل التواصل" والتي يحركها نفس المهماز الفكري المتمثل في دور وسائل الإعلام المفترض في توسيع دائرة الديمقراطية .

ينطلق ألان توران من الشيء ذاته لما يطلق "علم الاجتماع هو عدو الذات" 5 وفي موضع آخر يسترسل في نفس الواجهة : " لا بد لنقد علم الاجتماع أن يمارس اتجاه نفسه فالمثقف ليس فوق المجتمع هو يعبر عن بلاغة الأساتذة والجامعة فهو مبدع للمعرفة يسير بين نفيين : إما باسم الوضعية يضع نفسه في خدمة النظام القائم أو على النقيض ينغلق مخافة أن يسقط في شرك النظام الاجتماعي، في لعبة للمرايا"6

فلنسجل أن لفظة المرايا التي يتكرر استخدامها لدى الكثير من علماء الاجتماع وتبدو استعارة قوية من حيث الحضور لدى بورديو أيضا تعكس بجدوة عالية فكرة الانعكاسية باعتبار أن المرأة ترد الذات نحو الذات وتنسي وجودها .

وفي السياق ذاته يرر توران الاختيار السابق بفعل عدم إمكانية فصل المعرفة السوسولوجية عن التفكير حول تنظيمها.7

ما يشي بإصرار المؤلف على توريط المنتج للمعرفة في سيرورة صنعها وإنتاجها.

علما أن البراديجم الجديد لتوران لا يختلف عن هذا التصور فالذات لديه ذات واعية على علم الاجتماع أن يكتسي مهمة جديدة تتمثل في إخراجها الذات من عمق الفاعل الاجتماعي تلك الذات المتسمة بالإبداع والنقد والتقييم ولديها القدرة على تجاوز الوضعيات مما بسم هذه النظرية التي ماتوقفت قط عن التجدد بالترعة الإنسانية أو بعبارة مغايرة عودتها القوية الشيء الذي حمل توران وفي السياق ذاته إلى تصور التدخل الاجتماعي الذي يرد في شكل مساعدة يقوم بها علماء الاجتماع حيال الفاعلين الاجتماعيين وبمساعدهم ليتحولوا في لحظة مصيرية مبحوث عنها إلى ذوات وكان المجتمع نزع ملكية الذات من الأفراد ومهنة علم الاجتماع الحقيقية مساعدتهم على استردادها الفرد الذي يعترف له فرانسوا دوبي بقدرته على التحكم في علاقته بالعالم. عرف بورديو في الحقل العلمي بإرادة قوية لتحطيم الأقيانيم والدوكسات بما في ذلك الدوكسا العلمية وهي الأشد والأكثر تواريا لارتباطها بأكثر الخطابات ارتباطا بالحقيقة ألا وهو الخطاب العلمي وإذا كانت مهمة النظرية السوسولوجية هي التماسف مع الحس العام وموضعته والتي لاتعني الاكتفاء بالتماسف معه فحسب بل تستدعي ممارسة موضعة الموضعة والتي يذكر بورديو في شأها... فعلا إن الباحث المشغل بما يفعل فان نظام وسيلة التحليل يصبح موضوعا للتحليل : المنتج الموضع لعمل الترميز يتحول تحت النظرة الانعكاسية إلى الأثر القابل للقراءة الفورية لعملية بناء الموضوع ، الشبكة التي فعلت لبناء المعطى ، منظومة فئات الإدراك المتناسقة نسبيا والتي أنتجت موضوع التحليل العلمي ... " 8

غير أن المفارقة التي تصادفنا هاهنا هي أن الموضوع أي عالم الاجتماع بحاجة إلى موضعة بفعل انتمائه للواقع الاجتماعي الذي يتخذ موضوعا للبحث والمساءلة ومن ثمة يستحيل ألا يدخل في دائرة ذات المساءلة وعليه يصبح الرهان بناء معرفة موضوعية للعالم الاجتماعي تضم جميع أطرافه أو بالأحرى تجمع طرفي المعرفة ألا وهما النظرية المعرفة ونظرية الفعل أو نظرية الحس العملي وهي ذات الدواعي التي حفزته ليدعو لما يسميه بالاحتراز الاستيمولوجي والمتمثل في تحليل ذاتي قادر على الكشف عن التفيئة التي يمارسها الأفراد بما في ذلك علماء الاجتماع حيال واقعهم الاجتماعي والتي يتقاسمونها مع غيرهم بحكم الاشتراك في عملية التنشئة وفي هذا الشأن يقول بورديو "إن أول عمل للباحث هو أن يحاول أن يعي فئات الإدراك لديه ومحاولة إنتاج معرفة بوسائل معرفة التي نعرف بواسطتها العالم الاجتماعي يمكن أن يحدث ذلك بطريقة ملموسة جدا من أنا اجتماعيا ؟ أنا الذي أقول ما أقول بما أنني أنا أي المتغيرات التي تميزني ( سني ، جنسي ، مهنتي علاقتي بالمنظومة المدرسية ، علاقتي بوسط العمل ، عدد السنوات التي كنت فيها عاطلا عن العمل أحدا بعين الاعتبار هذه المتغيرات ماهي فئات الإدراك أو التصور التي من المحتمل جدا أن أطبقها على الشخص الذي انظر إليه". 9

ليس من الغريب أن نرى في الموقع ذاته ملامح الملكة بمعنى أن الباحث يحلل ملكته وهو يحلل ملكات مبحوثيه ونظرا لتواجد الباحث والمبحوث في وضعية واحدة اتجاه العلم يطلق بورديو تسمية الموضعة بالمشاركة على هكذا قضية وإذا كانت الممارسة الفردية لها غير واعدة بكثير من النتائج ولاتصل إلى أهدافها فانه من الأفضل أن تتم ممارستها جماعيا في لعبة مرايا بحيث أن كل باحث يبعث لقرينه صورته والعكس صحيح وإذا انتظمت هذه العملية وأصبحت ممارسة عادية ومتكررة في صفوف المثقفين فلا غرو إذن من تحولها إلى منعكس شرطي يدعوه بورديو التفكيرية أو الانعكاسية المنعكس. وتمثل المقابلة أحسن مثال يستخدمه بورديو لتوضيح ضرورة التفكيرية عندما يطرح فكرة مفادها أن الباحث يتساوى مع المبحوث في وضعية البحث الميداني على المستوى الاجتماعي حتى لايفرض عليه وجهة نظره المبنية اجتماعيا بل يساعد كل منهما الآخر في الاطلاع على وضعه الاجتماعي مايعني أن الأمر لايتعدى أن يكون ممارسة للموضوعية على المباشر. يوضح بورديو في بؤس العالم كيف أن المقابلة غدت فرصة للمبحوثين للتعبير عن وجهات الخاصة بهم وعلى بنائها والتعبير عنها حتى يفهمهم الآخرون ويبررون مواقفهم ويشرحون رؤيتهم للعالم مما ينجم عنه المعاينة التالية ألا وهي مدى الأهمية التي تسندها التفكيرية للأفراد بوصفهم مزدوين بملكات تفكيرية.

ما يعطي لعلم الاجتماع المكانة الاستيمولوجية التي تليق به والمتمثلة في التفكير حول المعرفة العامة وبعبارة أخرى يصبح علم العلم أو العلم حول العلم مع توخي كل الحذر ونحن نتعامل مع هذا الطرح الذي قد يوحي لنا بملامح اثنوميتودولوجية التي يختلف المؤلف مع مسلماتها حتى وان تراخت لديه المعارضة نسبيا خاصة "أثناء وبعد بؤس العالم" حيث صادفنا بورديو ميالا للمنهجية الكيفية ذات المنحى الفينومينولوجي.

أما على المستوى العملي يكتسي علم الاجتماع الطابع النقدي والنضالي المتمثل في تحرير الأفراد من مختلف الاكراهات الاجتماعية يجعلهم يعون وجودها وبالتالي يشتغلون للتقليل منها وإضعافها.

لم يستقر هذا المفهوم لدى بورديو إلا بعد وقت طويل بل أن استخدامه بالنظر للمسيرة الطويلة للرجل يعتبر متأخرا حيث تدرج من شرح تفكيره سنة 1972 أنثروبولوجيا انعكاسية 1992 وانعكاسية مسبقة 1992 وانعكاسية منعكس (شرطي)

1993 وعلم اجتماع انعكاسي، 1997. 10

تطرح الانعكاسية ناهيك عن الفكرة الشائكة جدا للعلمية فكرة الممارسة العلمية أو العلم كفعل ينخرط في شبكة العلاقات الاجتماعية بحكم تعقه بكيانات اجتماعية.

وبناء عليه تتحول الانعكاسية بين يدي بورديو إلى منهج يتساءل فيه الباحث عن الأفكار المسبقة كيف يمكن الادعاء القيام بعلم للأفكار المسبقة من دون العمل على الحصول على علم للأفكار المسبقة الخاصة 11

إن بورديو يجعل من التحليل الاجتماعي الشرط الأقصى أو بالأحرى الشرط الاستيمولوجي لممارسة العلم اجتماعي. من الجلي للعيان أن الانعكاسية البوردوية تأخذ من معين فتنحشنتين لما انتقد تيمة الكلام كبناء اجتماعي يؤثر على الخطاب العلمي والفلسفي أي تأثير الملكة على الباحث فتتحول إلى استعدادات مستبطنة تشكل ملكة للاستعداد الذاتي لديه ومنه هي أحوج ما يكون للتحليل الاجتماعي/ السوسولوجي. فلا مناص إذن من تفكيك ظروف إنتاج أعماله الفكرية/ العلمية ما يذكر بفكرة الأطر الاجتماعية للمعرفة لغورفيتش وبالابستيميات الفوكولدية.

وإمعانا في الإحاطة بالفكرة يوضح قائلا " يتمثل الخطأ في وضع العالم في الآلة بإسناد العقل المعقلن الخاص بالعالم المعقلن فيما يتعلق بممارستهم (لا العقل العملي للعالم الفاعل في الحياة اليومية)". 12

مما يحول كل وجهات النظر المنفصلة أي اللاتاريخية إلى محض ادعاء باعتبار أن الوضعية الفكرية النقية مجرد خرافة بحاجة إلى تفكيك: " يسند العالم رؤيته الخاصة للأعوان وخاصة مصالح المعرفة المحضة والفهم الخض اللذين هما غريبين عنهم إلا استثنائيا

13"

ووفق هكذا منظور تتبدى ملامح الممارسة العلمية كما تترسم في الأفق البوردوي وهي ممارسة سوسولوجية لاتطلق موضوعها أو بعبارة أخرى لاتجعلها مطلقا بل تغوص في الممارسة التي تعرف به وتحدهه 14

وبخصوص هذا الشأن لم يتوان بورديو عن تطبيق هذا المطلب الذي تحول إلى متطلب وعكس غولدنر إلى ممارستها في جل أعماله ولعل أبرزها الرجل الأكاديمي والذي يعتبره جاك بوفراس أكثر كتب بورديو فضائية بحيث اعتمد فيه على تطبيق أدوات التحليل

السوسولوجي على الحقل الأكاديمي بالرغم من أنه جزء منه مسلطا الضوء على الحقل الجامعي في الفترة المتراوحة ما بين 1960 و1970 معرجا على الحدث الأهم ماي 1968 مما يعد نشاطا انعكاسيا علما وان اسمه يرد فيه على هيئة غير تصريحية إلى

جاناب أسماء كبيرة كفوكو على سبيل المثال ولم يتوان عن نفس الممارسة في عمله حول نعي النورمالين (طلبة المدرسة العليا لتخريج المعلمين) بمناسبة للبحث عن فئات لدى الأساتذة الجامعيين

والاستراتيجيات الموظفة من قبلهم للتأكيد على قيمهم من جهة ووضعهم كلا في مكانه من جهة ثانية.

وتنسحب التفكيرية إلى مجال أوسع من زاوية تداعياتها الاجتماعية فالشرعية العلمية ليست وليدة الصدفة بل هي بناء اجتماعي حسب أنطوني غيدنز التنشئة التي تسند للإنتاج العلمي مكانة غير مشكوك فيها مما ينجم عنه احترام لأشكال التخصصات لاسيما

التقنية منها وترد نفس هذه النظرة بشكل أكثر راديكالية على لسان باك عندما يصبر على أن مصدر الخطر لم تعد الطبيعة وإنما هو البحث العلمي بفعل أن استعمالات العلم الحديث لم تعد تحت سيطرة الإنسان بل تنفلت منه . وبناء على كل ماتقدم تتبدى التفكيرية أو الانعكاسية كثورة معرفي وعملية في أن معا بوصفها تستجيب لتجاوز الإشكالية القديمه الذاتي في مواجهة الموضوعي والعكس تحت وطأة المناهج الكيفية منذ لحظات تلعثمها الأولى مع مدرسة شيكاغو خالصة إلى الإقرار بوجود نسبية مطلقة تجعل الحقيقة العلمية تقاطع وجهتي نظر الباحث والمبحث معا ليكون أكبر إنجازاتها التوكيد على انتفاء وجود معرفة مطلقة ولكن توجد تأويل ممكنة لفهم ممكن.

تبدو التفكيرية الانعكاسية كصيحة أخلاقية وديموقراطية بدليل قول بورديو : " هناك ضرورة لإدماج الرؤيتين ، الموضوعية والمنظورانية بفضل عمل ينحو إلى موضوعة الموضوعة ، القيام بنظرية لأثر النظرية ، تفرض نفسها لسبب آخر أساسي بلا شك من وجهة النظر النظرية أو الأخلاقية والسياسية : البناء العلمي للفضاء "الموضوعي" للأعوان وللخواص الفاعلة تنحو إلى تعويض الإدراك الشامل والغامض لفتة "الأقوياء" لإدراك تحليليا وانعكاسيا ، يحطم إذن الغموض والضباب وعدم الدقة والريبة التي تشكل التجربة العادية . إن فهم "موضوعيا" العالم الذي نعيش فيه دون فهم منطق هذا الفهم ، ومايفصله عن الفهم العملي ، هو الامتناع عن فهم ما يجعل هذا العالم قابلا للعيش ومعاشا" .15

وكما يبدو للعيان فالجمل الرابط بين علماء الاجتماع سابقى الذكر والذين قد يتواجدون على طرفي رقعة الشطرنج الفكرية والعلمية إلا أنهم يبدون متفقين حينما يدق موعد الانعكاسية بما في ذلك علماء الاجتماع الذين لم يكتبوا عنها الكثير ولم تكن سنم حربتهم في النقاشات العلمية كنوربرت الياس الذي وان لم يسمها إلا انه أكد عليها كهيئة ذهنية أكثر من ضرورة في قوله: " إذا أردنا أن نفهم ماهية موضوع علم الاجتماع ، فلا بد أن نكون قادرين على اتخاذ ذهنيا مسافات مع الذات وأن ندرك أنفسنا كإنسان بين آخرين" .16

ويتجلى قوله كفاية عندما يشير إلى الترابط والتلازم بين الذات والموضوع : "وفي آن معا لا يوجد موضوع البحث إلا بواسطة علاقته بالمثل والذي ينتمي إلى الحقل الذي يدرسه" .17 لا يغيب عن ملاحظتنا الفكرة التي مفادها أن نصيب بورديو من الانعكاسية أوفر من غيره من الكتاب لسبب بسيط ألا وهو أنه بنى مشروعاً فكرياً يقوم على قائمتين واحدة موضوعاتية والأخرى معرفية بدلالة أنه أُلّف في الايستيمولوجية كذلك. وأخيراً نختصر التعليق عما سبق بالقول أن التفكيرية / الانعكاسية تعد تجاوزاً للخلاف ذاتي/موضوعي وللحياد القيمي الفيبري وهنا تبرز خصوصيتها والجدالات البيزنطية التي يمكن أن تجنب ، ولفائده ، علم الاجتماع من الخوض فيها.

1. <http://www.cnrtl.fr/definition/reflexivité>.
- لمزيد من الاطلاع أنظر في هذا الشأن :
- 2 . Gouldner Alvin, The coming crisis of western sociology, New York, Basic Books, 1970.
3. Nicolas Cancade, « Bernard Lahire, La raison scolaire. Ecole et pratiques d'écriture, entre savoir et pouvoir », Lectures [En ligne], Les comptes rendus, 2009, mis en ligne le 20 avril 2009, consulté le 28 février 2014. URL : <http://lectures.revues.org/743>
- 4.Giddens Anthony, La constitution de la société ,Puf ,Paris, P .59
- 5.Touraine Alain, Pour la sociologie ,éd du seuil , coll. « Points »Paris ,1974 ,P 179.
- 6.Ibid .P. . 88-89.
- 7.Ibid .P .234 .
- 8.Bourdieu Pierre, Homo Academicus , éd de Minuit , Paris 1984 , P18.
9. Bourdieu Pierre, « De quoi parle-t-on quand on parle du « problème de la jeunesse ?» dans Annick Percheron (dir.) Les jeunes et les autres, Vaucresson, centre de recherche interdisciplinaire de Vaucresson, PP 229-234, P233.
10. Courier Yves, Les réflexivités de l'œuvre théorique de Bourdieu entre méthode et théorie de al pratique, esprit critique vol.04n° 03, Mars 2002, consulté sur internet le : 09 janvier 2014, à 19.30. À l'adresse :  
<http://www.espritcritique.fr>
- 11.Bourdieu Pierre,(dir.) La misère du monde ,éd du Seuil, coll. « Points », Paris ,1993.
- 12.Bourdieu Pierre , Méditations Pascaliennes ,éd du seuil, Paris ,1997 p75 .
13. Ibid. P80.
14. Ibid. P 66.
15. Bourdieu, Pierre, Homo Academicus, op.cit. , P 31-32.
- 16 .Elias Norbert, Qu'est ce que la sociologie, éd de l'Aube,1991 ,P7 .
17. Ibid.P 240.